# المعرفة بين الفلسفة والتصوف

« مهداة إلى الأستاذ على الطنطاوى الذى كتب يقول : لى من دنياى الآن مطلب واحد . يقظة قلب أدرك بها حقائق الوجود وغاية الحياة

للأستاذ حسن محمد آدم

ما سر الوجود ؟ وما لغز الحياة ؟ من أين جئنا وإلى أين المصير ؟ وكيف السبيل إلى إدراك كنه هذا الوجود ، وفهم غاية هذه الحياة ؟ وما السبيل إلى المعرفة الحق ، والسعادة العظمى ؟ هذه أسئلة عميقة تتفاعل فى رأس الإنسان ، وتدور فى عقول الناس ، ولا يدرى لها الكثيرون أجوبة شافية ، ورودودا مقنعة ، فيعيشون فى الحياة قلقين حائرين ، ويضربون فى بيدائها تائهين يائسين ، وكأنى بهم يسيرون فى موكب الإنسانية وهم يترقبون بنفوس قلقة متشائمة ، أن يبتلع الجميع بعد الطريق الطويل.. هاوية سحيقة من العدم ! والإجابة على هذه الأسئلة هى فى صميمها المعرفة الحقة ، وهى فى ذاتها عين الحقيقة التى يتوق إليها الجميع ، فأنت إن وفقت للاجابة الصحيحة فقد فككت طلاسم الكون ، وحللت ألغاز الحياة ، ووقفت على سر الوجود والغاية من هذه الحيـــاة

ومنذ القدم ، منذ وجد الإنسان الفكر على سطح هـــذا الكوكب ، حاول الوصول إلى الجواب ، وتمثل ذلك فى فلسفات ونظريات متباينة تعددت وتنوعت على أعصر التاريخ ، ولكنها جميعا ظلت عبر القرون تتأرجح بين مذاهب متضاربة ، ومدارس متعارضة ، يقترب بعضها من الحقيقة أو يبعد بقدر ما أوتى الفلاسفة من نضج فى الفكر ، وقوة فى التبصر ، وإمعان فى التأمل والحكمة

وكان حين تأتى على الناس فترات من الوحى ، تشرق عليهم أنوار النبوات ، فيتبدد عنهم الظلمات ، ويستنير ماغم من طريق الحياة ، ويذهب الشك والارتياب ، ويتضح على هدى الرسالات سبيل المعرفة ، ولكن رأى الدين فى الوجود والحياة لون مفروض من المعرفة ، يمليه الوحى وتلزم به العقيدة ، وهو تصديق بأمور من الغيب ، تصديقا لا يحتمل النقاش ، ولا يقبل الجدال ، يحمل الناس على اعتناقه سواء وافق ذلك منهم هوى العقل الطليق أم خالفه ، أوجارى منهم منطق التفكير الحر أم جافاه

فما كان للفلسفة أن تقتنع بهـذا وهى ناصرة الفكر الحر ، وصانعة مناهج البحث ، فرأت أن تحـــرر نفسها من أكبال الغيبيات ، وأن تنهج على منهاج العقل علها تصل بذلك إلى المعرفة وتدرك الحقيقة وتفهم غاية الوجـــود.. ويبدأ الزمان يسجل على صفحات القرون وخرج لنا تاريخ الفلسفة زاخرا كما أسلفنا بما ت من المذاهب الفلسفية والآراء النظرية فى الوجود وفى الحياة ، ويقيه الإنسان فى غمارها ، لا يدرى أين الحق من هذا المذهب أو ذاك ، وأين الرأى السديد من هذه النظرية أو تلك ، ثم لا يخرج من بينها إلا وذهنه أشد فراغا ، إلا من سيل دافق من علامات الاستفهام والتعجب يوشك أن يؤدى بعقله إلى محيط مظلم من الشك والإلحاد !

إن الفلسفة أرادت أن تدل الناس على المعرفة فلم تستطع. إنها أرادت أن ترسم سبيل الحقيقة فلم توفق ... لماذا ؟ ذلك لأن الفلسفة قد ترضى العقل النظرى، وقد ترضى الاستدلال المنطق ، ولكنها لا تستطيع بحال أن ترضى الإحساس الروحى ، والذوق القلبى. وطريق المعرفة إنما يلتمس بالروح لا بالعقل ، ويطلب بالذوق

---

على أننى أعتقد أنه مهما يكن الرأى فى القائمين بهذه الحركة أو المندسين عليهم فإن البرنامج الذى وضعوه مفصلا على أساس تلك المبادئ يمكن تبنيه على أن يكون الخلق الذى تتسلح به ذا طابع قومى

إن الأخلاق فى ذاتها لا تختلف بين أمة وأمة ، ولا بين دين وآخر ولكن الفهم لها وطرق التوجيه إليها والانتفاع بها تختلف كما بدا لى أخيرا من الذين تنطبق عليهم الآية الكريمة :

« ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام »

الاسكندرية — أحمد عوض

والقلب لا بالمنطق والفكر !

ولا تعجب بعد ذلك إن رأيت الفلاسفة يجهدون عقولهم وأفكارهم القرون الطوال بحثا عن المعرفة ، ثم ينادرون الحياة ولما يعرفوا سبيلها ، بل ينادرونها جهالا كما دخلوها ، كما يؤثر عن سقراط الذى قال وهو على فراش الموت : « الآن أعرف من الدنيا حقيقة واحدة وهى أنى لا أعرف شيئاً ! »

هذا ، وفى الوقت الذى كان فيه الفلاسفة يسعون سعيهم ، كان الذين عرفوا السبيل الصحيح من المتصوفة وأرباب الأذواق والمواجيد يطلبون المعرفة عن طريق تصفية النفس والتسامى بها من أدران المادة وشوائب الحس ، إلى عالم النور والفيض والإلهام ، ووصل هؤلاء الروحيون إلى بغيتهم فكانوا الرواد الأول ، وكانوا مكتشفى الحقيقة ، والراسمين سبيلها للحائرين فى الأرض . . وقرر هؤلاء أن منهاج المعرفة منهاج واحد فريد هو مجاهدة النفس ، وقطع مقاماتها ، والانسلاخ من حجبها حتى ينجلى عين البصيرة ، فهنا تشرق الروح وتتم النعم وتكمل السعادة

فيامن تريد قلبا يقظا تدرك به حقائق الوجود ، عليك بالنفس فادرس مراتبها وظلماتها ومقامات صفائها ، وعليك بهيكل الجسم الحائل فروضه على الرياضة الروحية الصادقة وخلصه بقدر من علائق الدنيا ، ثم عليك من فورك بالطريق إلى الله فتعرف آداب سالكيه ، ثم شد الرحال إليه صوب مقامه الأسنى وهناك فى المعية الأولى التى كنت فيها من قبل فى عالم الذر ، وفى أكناف النبع الأولى الذى فاض منه الوجود بكل مافيه ستعرف حقيقة إنسانيتك وحقيقة الكون الذى تعيش فيه ، وحقيقة الحياة التى تحياها ، وفى ذلك الفرصة الكبرى والسعادة العظمى

وإليك الغزالى حجة الإسلام وفيلسوفه الأكبر خير مثل على ما نقول ، إن نفس هذا الفيلسوف العظيم تاقت فى بداية حياته الروحية أن تصل إلى المعرفة ، وتحرقت شوقا للوصول إلى الحقيقة ، فانطلق يطلبها عند أدعيائها من الفلاسفة والمتصوفة والمتكلمين ، وكان فى سعيه بادى القلق ، عظيم اللهفة ، فوقع ضحية صراع نفسى مرير ظل يعانيه وهو دائم التردد على تلك الطوائف ، فبلى أمر الفلاسفة فلم يجد عندهم ضالته ، وبلى أمر المتكلمين فلم يعثر عندهم كذلك على بغيته ... وأخيرا لجأ إلى التصوف ، فأفهمه أرباب أن ضريبة المعرفة عندهم تجرد ومجاهدة ، فكادت نفسه أن تستكين ، ولكن روحه المعذبة كانت تناديه من الأعماق « الرحيل ، فإنه لم يبق من عمرك إلا القليل ، وبين يديك السفر الطويل » فاستجاب لهذا الهاتف الباطنى ، وترك بغداد مسقط رأسه مهاجرا إلى الله صوب ربوع الشام وهو يردد :

تركت هوى ليلى وسعدى بمعزل ... وعدت إلى محبوب أول منزل
ونادت بى الأشواق مهلا فهذه ... منازل من تهوى رويدك فانزل

وهناك وجد فى ظلال التصوف راحة النفس ، وهدوء البال ، وسعدت روحه بالمعرفة المشرقة والسعادة الحقة ، وعبر عن ذلك بقوله :

فكان ما كان مما لست أذكره ... فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

حسن محمد آدم


# دفاع عن البلاغة

للأستاذ أحمد حسن الزيات

كتاب يعرض قضية البلاغة العربية أجمل معرض ويدافع عنها أبلغ دفاع فيذكر أسباب التنكر للبلاغة ، والعلاقة بين الطبع والصنعة ، وحد البلاغة ، وآلة البلاغة ... الخ

من فصوله المبتكرة : الذوق ، والأسلوب ، والمذهب الكتابى المعاصر وزعماؤه وأتباعه ، ودعاة العامية ، ودعاة الرمزية ، وموقف البلاغة من هؤلاء وأولئك ... الخ

يقع فى ١٩٤ صفحة وثمنه خمسة عشر قرشاً

عدا أجرة البريد